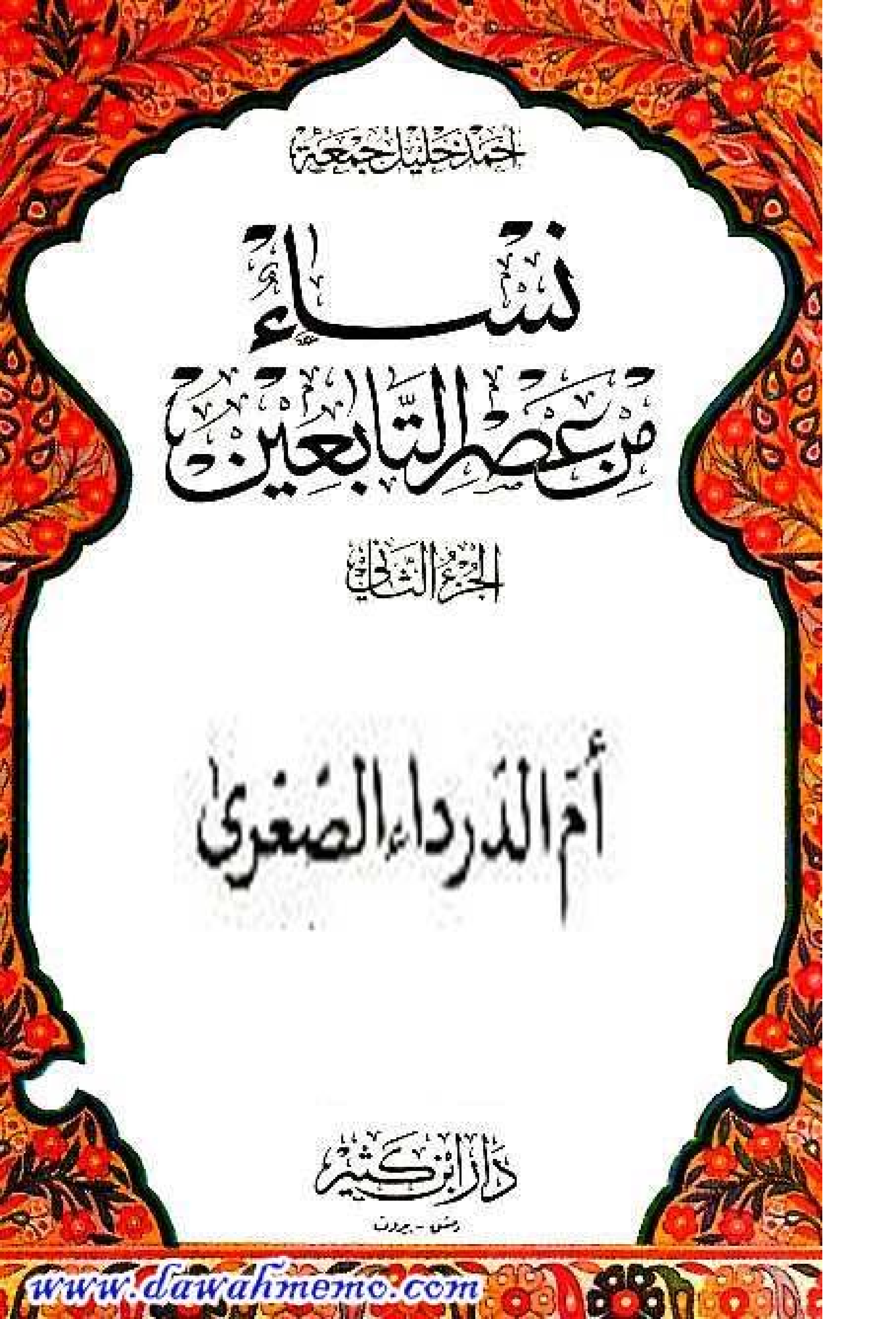

أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
الجزء الثاني
أم الدرداء الصغرى
دار ابن كثير
دمشق - بيروت
www.dawahmemo.com

(٨)

أمّ الدّرداء الصّغرى

* قال ابن كثير :

كان الرجال يقرؤون عليها ، ويتفقهون في الحائط الشمالي بجامع دمشق .

* وقال عون بن عبد الله :

كُنّا نأتي أم الدرداء فنذكر الله عندها .

* وقال ابن عساكر :

كانت زاهدة فصيحة .

* وقال النووي :

كانت فقيهة حكيمة .

أُمُّ الدَّرْدَاءِ الصُّغْرَى

مِنْ سَيِّدَاتِ التَّابِعِيَّاتِ :

* إذا ذُكرتِ النِّساءُ التَّابعيات ، فهي _ ولا شكَّ _ من أبرزهنَّ ، ومن أولي المكانة فيهن وبينهن .

قال ابنُ أبي داود : سيِّدتا التَّابعيَّات : حفصة بنت سيرين[1] ، وعمرة بنت عبد الرحمن[2] ، وتليهما أمّ الدّرداء .

* وأمّ الدّرداء صاحبة السِّيرة في هذه الصَّفحات ، هي هُجَيمة بنت حُيي الوصّابية ؛ ويقال : الأوصابية[3] ، زوج الصَّحابي الجليل أبي الدَّرداء _ عُويمر بن زيد _ رضي الله عنه _ .

* وكان لأبي الدَّرداء _ رضوان الله عليه _ امرأتان : كلٌّ واحدة منهما يُقال لها : أمّ الدّرداء ؛ وهما : كُبْرى صحابية ، وصُغْرى تابعية . وقد تزوّج التّابعية بعد وفاة الصَّحابية . واسم الصَّحابية : خَيْرة بنت أبي حَدْرد الأسلمية ، لها صحبةٌ وروايةٌ عن النبيِّ ﷺ ، وقد توفيتْ بالشَّام في خلافة عثمان[4] _ رضي الله عنهما _ .

---

(١) و (٢) اقرأ سيرة حفصة بنت سيرين ، وعمرة بنت عبد الرحمن في هذا الكتاب .

(٣) تاريخ دمشق (ص ٤١٨) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٦٠) ، وسير أعلام النبلاء (٤/٢٧٧) .

(٤) توفي أبو الدرداء _ رضي الله عنه _ في سنة (٣١ هـ) .

* وأمُّ الدَّرداء الصُّغرى ، ليس لها صحبةٌ ولا سماعٌ من النَّبي الكريم ﷺ ، وإنَّما هي تابعية من سيدات عصر التَّابعين من أهل دمشق الشَّام .

* * *

زَوَاجُهَا مِنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ :

* نشأت أمُّ الدَّرداء ـ رحمها الله ـ يتيمةً في حجر أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ ، إذ ربَّاها على حبِّ الله سبحانه وتعالى ، وحبِّ النَّبيِّ محمد ﷺ ، وأحسن تربيتها كلَّ الإحسان لِعِلْمِهِ بما عند الله عزَّ وجلَّ من ثوابٍ لكافلِ اليتيم .

* وكانت تختلفُ مع أبي الدَّرداء إلى المسجدِ في بُرْنُس[1] تُصلي في صفوف الرِّجال ، وتجلسُ في حِلَقِ القُرَّاء ، وحفَّاظ القرآن الكريم ، تتعلَّمُ آياته وعلومه ، وتتلقَّى التِّلاوة من أفواه الصَّحابةِ ، وكبار القُرَّاء والعلماء ، حتى غدتْ مـمَّنْ يتقن تلاوته وقراءته إتقاناً رائعاً ، وعرضتِ القرآنَ ـ وهي صغيرة ـ على سيِّدنا أبي الدرداء ، فأُعجِب بحفظها ، ودقة تلاوتها له ، فأكْرَمَ مثْواها ، وحثَّها على المضي في هذا الطَّريق الوضيء .

---

(١) مِنْ أنواع الألبسة التي عرفها المسلمون في صَدْر الإسلام البُرنس . وذكر الجوهري في « الصِّحاح » أنَّ البُرنسَ قلنسوة طويلة .
وكان النُّسَّاك يلبسونها في صدر الإسلام . وقيل : البرُنس كلُّ ثوب رأسه منه ملتزق به دراعة كان أو جبة .
وذكر الإمام الشَّافعي ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم النَّفيس « الأم » (١٢٦/٢) أنَّ البرنس من الملابس التي منع الرسول ﷺ أنْ يلبسَ المحرم في إحرامه .

* ولما شبت أمُّ الدّرداء عن الطّوق ، اعتزلت صفوف الرّجال ، ولحقت بالنّساء بإشارةٍ من أبي الدَّرداء حيثُ قال لها : الحقي بصفوف النّساء .

* ونشأت هُجيمة _ أمّ الدّرداء _ على حبِّ العلم ، والشّغف بالعبادة ، وطلب الزهد ، كما أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حَباها بنعمةٍ من كمال العقل ، وأنعم عليها بالحُسْن والجَمال .

* ولما بلغت مبلغ النّساء ، تزوّجها أبو الدرداء ، ومنه أُخذت كنيتها _ أمّ الدّرداء _ ، فأضحتْ مشهورة بها ، وكادت تغطي على اسمها الحقيقي هُجيمة .

* وأخذت أمُّ الدَّرداء تتعلّم من زوجها ، فروتْ عنه علماً جمّاً ، رفعها إلى مصافّ العالمات الفاضلات الفقيهات في عَصْر التّابعين ممن تركن أنْصَعَ الآثار الكريمة في صفحات النّساء .

* * *

مِنْ أَخْبَارِهَا مَعَ زَوْجِهَا :

* على الأخلاق الفاضلة ، وعلى الخصال الحميدة ، نشأت أمُّ الدّرداء ، فكانت مَثَل الزّوجةِ الصّالحةِ ذات القدوة الحسنة لغيرها من النّساء ، فقد كانت تصغي لكلّ ما يقوله زوجها ، وتستمعُ إلى نصائحه التي تديم المودة بينهما ، فاسمع إلى واحدة من هذه النّصائح لها :

يا أمّ الدّرداء ، إذا غضبتِ أرضيتُكِ وإذا غضبتُ فأرضيني ، فإنّك

إنْ لم تفعلي ذلك فما أسرعَ ما نَفْتَرِق .

* وكانت هذه الكلمات ملء سمعها ، فكانت تحسنُ إلى أبي الدَّرداء ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، فهي تَعْلَمُ مكانته من رسول الله ﷺ ، كما تعلم مكانته الرّفيعة بين الصَّحابة الكرام ؛ إذْ هو عَلَمٌ منْ أعلامهم ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .

* وقد تعلّمتْ أمّ الدَّرداء ـ رحمها الله ـ القناعة ، والاعتماد على النّفس ، من ذلك ما روته عن إحدى نصائحه لها في هذا المضمار النّفيس فقالت :

قال لي أبو الدرداء : لا تسألي أحداً شيئاً .

فقلتُ : إن احتجت ؟ .

قال : تتبّعي الحصّادين ، فانظري ما يسقط منهم فخذيه فاخبطيه ، ثم اطحنيه ثم اعجنيه ثم كليه ، ولا تسألي أحداً شيئاً[1] .

* وحدّثتْ أنَّ أبا الدَّرداء كان يجيءُ بعدما يصبح فيقول : أعندكم غداء ؟ فإنْ لم يجدْ قال : فأنا إذاً صائم[2] .

* وكانت أمُّ الدّرداء ـ رحمها الله ـ تُكْبِر هذه الصِّفات في زوجها ، فكانت تبتهل إلى الله عزَّ وجلَّ أنْ يجعلها معه في الجنّةِ فقد ورد أنّها قالت :

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٢٦) ، وسير أعلام النبلاء (٤/٢٧٨) .

(٢) المعرفة والتاريخ للبسوي (٢/٦٦) .

* اللهم إنَّ أبا الدَّرداء خطبني فتزوَّجني في الدُّنيا ، اللهم فأنا أخطبه إليك ، فأسألك أنْ تزوّجنيه في الآخرة .

فقال لها أبو الدّرداء : فإن أردت ذلك ، فكنتُ أنا الأول _ أيّ متُّ قبلك _ فلا تتزوّجي بعدي .

فمات أبو الدَّرداء فخطبها معاوية فقالت : لا والله ، لا أتزوّج زوجاً في الدّنيا حتى أتزوج أبا الدَّرداء إنْ شاء الله في الجنَّةِ ، فإني سمعت أبا الدَّرداء يقول :

سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول : « المرأةُ للآخرِ من أزواجها » ولستُ أريد بأبي الدَّرداء بدلاً ، وإنّي سألتُ أبا الدَّرداء أنْ يسأل الله عزَّ وجلَّ أنْ يجعلني زوجته في الجنَّةِ .

فبعثَ إليها معاوية _ رضي الله عنه _ أنْ عليكِ بالصِّيام ، وظلّت أم الدّرداء على العهد إلى أنْ لقيت الله عزَّ وجلَّ .

* * *

في رِحَابِ الرِّوَايَةِ :

* لا عجب أن نجدَ امرأة كأمِّ الدّرداء بلغتْ منزلة كبيرة في الفقه والتّفسير والعلم ، إذا علمنا أنّها تلقّت معارفها عن كبار الصَّحابة وفي مقدمتهم زوجها الإمام القدوة ، قاضي دمشق ، وصاحب رسول الله ﷺ أبو الدَّرداء أحد حكماء أمّة الإسلام وسيّد القراء بدمشق ، وممن

جَمْعَ القرآن الكريم[1] في حياة رسول الله ﷺ ، وروى (١٧٩) حديثاً عن النبي ﷺ ، وفيه قال عليه الصَّلاة والسَّلام : « حكيمُ أمتي عُويمر » .

* ولم تقتصر أمُّ الدَّرداء في تحصيلِ علومها عن زوجها فحسب ، بل روت عن سلمانَ الفارسيّ ، وأبي مالك الأشعري واسمه كعب بن عاصم ، وأبي هريرة ، وفضالة بن عبيد ـ رضي الله عنهم ـ ؛ كما روت عن أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ .

* وتخرّج من مدرسة أمّ الدّرداء عددٌ من أكابر العلماء وجلّة التّابعين منهم : جُبير بن نُفير ، وأبو قلابة الجَرْمي ، ورجاء بن حَيْوة ، ويونس بن ميسرة ، ومكحول الشّامي[2] ، وغيرهم كثيرون جداً .

---

(١) عن أنس رضي الله تعالى عنه : مات النّبي ﷺ ، ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدّرداء ، ومعاذ ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . أخرجه البخاري (٤٧/٩ و ٤٨) في فضائل القرآن . وأبو زيد : هو سعد بن عبيد بن النعمان الأنصاري .
ومن الجدير بالذكر والمفيد أيضاً ، أنّ الحصْر في هذا الحديث إضافيٌّ لا حقيقيٌّ ، فقد حفظ القرآن جميعه الجمّ الغفير من الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم ، وقد سَرَدَ أسماءهم الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في فتح الباري (٤٧/٩ ـ ٥٣) فليراجع .

(٢) مكحول بن أبي مسلم ، أبو عبد الله الدمشقيّ : فقيه الشّام في عصره ، من حفّاظ الحديث ، أصله من فارس ، رحل في طلب الحديث إلى العراق ومصر والمدينة وغيرها ، ثم استقرّ في دمشق . قال ابن يونس : كان فقيهاً عالماً ، واتفقوا على توثيقه . وقال أبو حاتم : ما أعلم بالشّام أفقه من مكحول . توفي بدمشق سنة (١١٢ هـ) وقيل (١١٨ هـ) رحمه الله تعالى .
(تهذيب الأسماء واللغات : ١١٣/٢ و ١١٤) ، و (الأعلام : ٢٨٤/٧) .

* وروى لها الإمام مسلم في صحيحه ، وكذلك أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه في سننهم[1] .

• وفي طبقاتهِ ذكرها ابن سُميع في الطَّبقة الثَّانية من تابعي أهل الشَّام .

* * *

مِمَّا رَوَتْهُ أمُّ الدَّرْداءِ :

* عن أمِّ الدَّرداء عن أبي الدَّرداء قال :

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أصبحَ معافىً بدنه ، آمناً سِرْبُه ، عنده قوت يومه فكأنَّما حِيزت له الدُّنيا . يابن جُعْشُم ، يكفيك منها ما سدّ جوعتك ، ووارى عورتك ، وإنْ كان ثوباً يواريك فذاك ، وإن كان دابّة تركبها فَبَخٍ ، فِلَقُ الخبز ، وماء الجَرّ ، وما فوق ذلك حساب »[2] .

* ومن مرويّاتها التي تدلُّ على فقهها وعلمها بالسُّنَّةِ المُطَهَّرة ، ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث صفوان بن عبد الله بن صفوان ـ وكانت تحته الدَّرداء ـ قال :

قدمتُ الشَّام ، فأتيتُ أبا الدَّرداء في منزله فلمْ أجِدْه ، ووجدت أمَّ الدَّرداء فقالت : أتريدُ الحجَّ العامَ ؟ .

---

(١) الأعلام (٨/٧٧) .

(٢) جامع الأصول (١٠/١٣٥) و « فِلَقُ الخبز » : هي كِسَره ، و « الجرُّ » : جمع مفردها الجرة ، وهي آنية من خزف .

فقلتُ : نعم .

قالت : فادعُ الله لنا بخيرٍ ؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول : « دعوةُ المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ؛ عند رأسه مَلَكٌ موكَّلٌ ، كُلَّما دعا لأخيه بخيرٍ قال المَلَكُ الموكَّل به : آمين ولك بمِثْلٍ » .

قال : فخرجتُ إلى السُّوق فلقيتُ أبا الدَّرداء فقال لي مثل ذلك ، يرويه عن النَّبيِّ ﷺ [1] .

* وأخرجَ الإمام مسلم أيضاً بسنده عن أمّ الدَّرداء قالت : حدَّثني سيِّدي ـ تعني أبا الدَّرداء ـ أنَّه سمعَ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ دعا لأخيه بظهر الغيب قال المَلَكُ الموكَّل به : آمين ، ولكَ بِمِثْلٍ » [2] .

* * *

صُوَر منْ عِبادَتِها وطَاعتِها :

* كانت أوقاتُ أمّ الدرداء ـ رحمها الله ـ كلّها معمورة بالطَّاعة والعلم والعبادة ، وكان بيتها موئلاً لكلِّ متبتِّلٍ أوّاب ، وكلِّ فقيه مجتهد ، وكلِّ امرأة عابدة . وكان كثير من العبّاد والزّهاد يأتونها ليأخذوا عنها العلمَ والحديث ، ويذكروا الله سبحانه وتعالى .

* قال ابن كثير رحمه الله تعالى : كان الرِّجالُ يقرؤون عليها ويتفقهون في الحائط الشّمالي بجامع دمشقَ [3] .

---

(١) أخرجه مسلم (٨/٨٦ و ٨٧) باب : فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب .
(٢) أخرجه مسلم (٨/٨٦) .
(٣) البداية والنهاية (٩/٥٠) .

* وهذا أحدُ علماء التّابعين الثّقات وهو عون بن عبد الله يقول : كنّا نأتي أمّ الدّرداء فنذكر الله عندها .

* أمّا النّساء فكنّ يصرفْنَ أوقاتهنّ عند أمّ الدّرداء بالذّكْر والصّلاة ، قال يُونس بن ميسرة : كنّ ـ النّساء ـ يتعبدنَ مع أمّ الدّرداء يَقُمْنَ الليل كلَّه حتى إنْ أقدامهنّ قد انتفختْ من طول القيام .

* وواصلتْ أمُّ الدّرداء عبادتها بالصّلاة والذّكْر ، فلم تكن تُرى إلا وهي ساجدة قانتة ؛ وعن مواصلتها للصّلاة يقول ميمون بن مهران : ما دخلتُ على أمّ الدّرداء في ساعةِ صلاة إلا وجدتُها مصلية .

ووصف الإمام مكحول الشّامي صلاتها فقال : كانت أمُّ الدرداء تجلس في صلاتها جلْسة الرَّجل وكانت فقيهة .

* وكانت أمُّ الدرداء ـ رحمها الله ـ كلَّما زادتْ في العبادةِ والزّهدِ ، ازدادتْ تواضعاً وتقىً ، روى هذا إبراهيم بن أبي عبلة قال : قُلتُ لأمّ الدّرداءِ : ادعي لنا .

قالت : أوَ بلغتُ أنا ذلك ؟ ! ـ ترى أنّها ليست أهلاً لهذا ـ .

* ولأمّ الدّرداء وقفاتٌ لطيفةٌ ورائعة مع القرآن الكريم ، تشيرُ إلى تدبّرها لمعانيه وفهمها لآياته ؛ فعن أبي عمران الأنصاريّ قال : كنت أقودُ دابّة أمّ الدّرداء فيما بين بيت المقدس ودمشق ، فقالت لي : يا سليمان ، أسْمِع الجبالَ ما وعدها الله عزّ وجلّ .

قال : فأرفعُ صوتي بهذه الآية : ﴿ ويوم نسيّرُ الجبالَ وترى الأرض بارزةً ﴾ [الكهف : ٤٧] .

* ومن وقفاتها الرّائعة مع القرآن ، ما رواه سعيد بن عبد العزيز قال :

أشرفتْ أمُّ الدرداء على وادي جهنّم ـ موضع ـ ومعها إسماعيل بن عبيد الله ، فقالت : يا إسماعيل اقرأ ، فقرأ : ﴿ أفحسبتم أنّا خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : ١١٥] فخرّتْ أمُّ الدّرداء على وجهها ، وخرَّ إسماعيل على وجهه ، فما رفعا رأسيهما حتى ابتلَّ ما تحت وجهيهما من دموعهما .

* وفي مجال الصّبر والطّاعة ، والتّسليم للهِ عزّ وجلّ ، كانت أمُّ الدّرداءِ من الفئة الصّابرة الرّاضيةِ ، ويدلُّ على هذا ما ذكره عنها يحيى بن معين رحمه الله قال :

ماتت الدّرداء قَبْل أمّ الدّرداء ، فلمّا دفنتها قالت : اذهبي إلى ربّك ، وأذهب إلى ربي ، فدخلتِ المسجدَ .

* * *

تَعْليمُهَا للنَّاسِ :

* من المـآثر الكريمةِ لأمّ الدّرداء ، حرصُها الشّديد على مجالسِ العلم ، والحضّ على حضور مجالسِ العلماء ومذاكرتهم ، فعن عون بن عبد الله قال :

جلسنا إلى أمّ الدّرداء ، فقلنا لها : أمللناكِ ؟ ! .

فقالت : أمْلَلْتُموني ! لقد طلبتُ العبادة في كلّ شيء فما أصبتُ لنفسي شيئاً أشفى من مجالسةِ العلماء ومذاكرتهم ، ثم احتبتْ وأمرت

رجلاً أنْ يقرأ ، فقرأ : ﴿ ولقد وصّلنا لهمُ القول لعلهم يتذكرون ﴾ [القصص : ٥١] .

* وكانت تحثُّ مَنْ عندها على العملِ ، وعلى قبول الهدية ، وترشدهم إلى صالح الأعمال ، وتوجّه جميع طبقات النّاس توجيهاتٍ لطيفة في ظلال السُّنّة النّبويّة المطهّرة ، وشهد لها بهذا عثمان بن حيّان فقال :

سمعتُ أمَّ الدَّرداء تقول : إنَّ أحدهم يقول : اللهم ارزقني ، وقد عَلِمَ أنَّ الله لا يمطرُ عليه ذهباً ولا دراهم ، وإنّما يرزقُ بعضهم من بعض ، فمن أُعطي شيئاً فليقبل ، فإنْ كان غنياً فليضعه في ذي الحاجة ، وإن كان فقيراً فليستعنْ بهِ على حاجته ، ولا يردُّ على اللهِ تعالى رزْقه الذي رزقه[1] .

* وكانت أمُّ الدَّرداء ـ رحمها الله ـ ترى أنَّ تسبيحَ الله عزَّ وجلَّ أفضل العبادة ، ولهذا كانت تحثُّ على الإكثار من ذكر الله عزَّ وجلَّ في الصَّلاة ، والصّيام ، والعمل الصَّالحِ ، وترشدُ إلى تعريفِ الذّكر بكلامٍ يقطُر حكمةً وموعظةً فتقول :

ولذِكْرُ اللهِ أكبر ، وإنْ صليتَ فهو منْ ذِكْر الله عزَّ وجلَّ ،
وإنْ صُمْتَ فهو من ذِكْر الله عزَّ وجلَّ ،
وكلُّ خير تعمله فهو من ذِكْر الله عزَّ وجلَّ ،

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٣٠) تراجم النساء ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٨/٤ و ٢٧٩) .

وكل شرٍّ تجتنبه فهو من ذكر الله عزَّ وجلَّ ،
وأفضل ذلك تسبيح الله عزَّ وجلَّ[1] .

* ولم تكن أمُّ الدرداء تبخل بالنَّصيحة على أحَدٍ ، لا في سفر ولا حضر ، وكانت تزرعُ الوَرَعَ في نفوسِ سامعيها بطريقة تدعو إلى العلمِ والعمل على حفْظِ كتاب الله عزَّ وجلَّ ، حدَّثَ عن هذه الخصال الكريمة فيها أبو زكريا الخزاعيّ فقال :

خرجنا في سَفَر ، فصحبنا رجلٌ ، فقالت أمُّ الدَّرداء له : ما يمنعك أنْ تقرأ ، أو تذكر الله عزَّ وجلَّ كما يصنعُ أصحابك ؟ .

قال : ما معي من القرآن إلا سورة ، وقد رددتُها حتى أدْبرتُها ـ أشبعتها حفظاً ـ .

قالت : وإنَّ القرآن ليُدْبَر ! ما أنا بالتي أصحبُك ، إنْ شئتَ أن تتقدمَ ، وإن شئتَ أنْ تتأخرَ .

فضَرَبَ دابته وانطلق .

ثم صحبَنا رجلٌ آخر ، فقال : ـ يعني أبو زكريا الخزاعيّ ـ يا أمَّ الدَّرداء دعاءٌ كان يدعو به : اللهمَّ اجعلني أرجو رحمتك ، وأخاف عذابك ؛ إذ يأمنك مَنْ لا يرجو رحمتك ولا يخاف عذابك ، وأسألك الأمْنَ يوم يخافون .

فقالت أمُّ الدَّرداء : اكتبه ؛ فكتبتُه .

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٦١) .

* ومن خلال أعمالِ أمّ الدّرداء اليومية ، كانت تعلّم النّاس وتذكرهم بفضائل الأعمال ، مِنْ ذلك ما وردَ عن عثمان بن حيّان قال : أكلنا مع أمّ الدّرداء طعاماً ، فأغفلنا الحمد لله ؛ فقالت : يا بنيّ لا تدعوا أنْ تأدِموا طعامكم بذكر الله عزَّ وجلَّ ؛ أكلٌ وحمدٌ خيرٌ مِنْ أكلٍ وصَمْت .

* * *

مِنْ فَرَائِدِ حِكَمِهَا وَمَوَاعِظِهَا :

* لا عجب أنْ تجريَ الحكمةُ على لسان أمّ الدّرداء عذبةً رائعةً ، فقد تخرّجت من مدرسة حكيم الأمّةِ أبي الدّرداء ـ رضي الله عنه ـ ، وقد أُثرت عنها كلماتٌ رائعةٌ رقّتْ معانيها وراقَ لفظها ، من أمثلة ذلك قولها :

أفْضل العِلْم المعرفة .

* وقد كتبت لواحدٍ من تلاميذها في لوحه هذه الحكمة البليغة : تعلّموا الحكمة صغاراً ، تعلموها كباراً ـ أو تعملوا بها كباراً ـ ، وإنَّ كلَّ زارعٍ حاصدٌ ما زرع مِنْ خيرٍ أو شرّ[1] .

* ومن نفائس أقوالها في ذمّ الدّنيا والتّحذير من سحرها وزخرفها ، قولها :

الدّنيا أسْحَر لقلب العبد من هاروتَ وماروتَ ، وما آثرها عبد قطّ

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٦٠ و ٣٦١) .

إلا صرعته _ أذلته _ .

* ومن حكمتها في الحياة الاجتماعية ما ورد أنّها عوتبت في شيء ، فقيل لها : لِمَ كذا وكذا ؟ .

قالت : نَقَصَ النّاسُ فنقصتُ كما نقصوا .

* ومن أبدع مواعظها ، وأنصع أقوالها وتجارِبها ما أورده الزّمخشري في « ربيع الأبرار »[1] أنها قالت :

مَنْ وعظ أخاه سراً فقد زانه ، ومن وعظه علانية فقد شانه .

* وعن شَهر بن حوشب عن أمّ الدّرداء قالت :

إنّما الوجل في قلبِ ابن آدم كاحتراق الشّمعة ، أما تجد لها قشعريرة ؟ .

قال : بلى .

قالت : فادع الله عزَّ وجلَّ إذا وجدت ذلك فإنَّ الدعاء يُستجاب عند ذلك .

* ومن أقوالها البديعة في الحكمة ، ما قالته في علاج القلوب القاسية ، فقد قال لها رجل : إنّي لأجدُ في قلبي داء لا أجد له دواءً ، وأجدُ قسوة شديدة وأملاً بعيداً ، قالت : اطلع في القبور ، واشهد الموتى .

---

(١) (٥/٣١٢) .

* وأتاها هشام بن إسماعيل المخزوميّ فقال لها : ما أوثق خصالك في نفسك ؟ .

قالت : الحبُّ في الله عزَّ وجل[1] .

* * *

ثَنَاءُ العُلَمَاء وأَهْلِ العِلْمِ عَلَيْها :

* حظيتْ أمُّ الدَّرداء ـ رحمها الله ـ على شهادات موقَّعةٍ من أكابر العلماء بالثَّناء عليها لتقدمها في المعرفة والعلم والعبادة والفضائل .

* فقال مكحول ـ رحمه الله ـ : كانت أمُّ الدَّرداء فقيهة .

* وقال ابن عساكر : كانت زاهدةً فصيحةً .

* وقد وصفها النّوويّ بقوله : كانت زاهدةٌ فقيهةٌ .

وقال أيضاً : كانت فقيهةً حكيمةً .

* وأورد ابنُ كثير ترجمتها ووصفها بقولِهِ : تابعية ، عابدة ، عالمة ، فقيهة .

* ونعتها الذّهبيُّ بقوله : السّيّدة العالمةُ الفقيهةُ ، واشتهرت بالعلم والعمل والزّهد .

* وأمّا ابن حبّان فقد ذكرها في الثّقات وقال : كانت من العابدات .

---

(١) تاريخ دمشق (ص ١٠٨) .

* وقد أجمع العلماء والمؤرخون على وصفها بالفقه ، وهذه الصّفة من أعظم الصّفات التي تجتمع في الإنسان ، إذ إنّه مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيراً يفقهه في الدّين .

* * *

مِنْ أَخْبَارِهَا مَعَ عَبْدِ المَلِكِ :

* كانت أمُّ الدَّرداء ـ رحمها الله تعالى ـ معظَّمةٌ عند بني أمية ، تحظى باحترام خلفائهم ، وقد رأينا كيف كان سيدنا معاوية يجلّها ويحترمها .

* أمّا عبد الملك بن مروان ، فكان يجلسُ في حلقتها مع المتفقّهة يشتغلُ عليها بالعلم وهو خليفة[1] ؛ وكان كثيراً ما يجلسُ في مؤخر المسجد بدمشق يستمعُ إلى أمِّ الدَّرداء ـ رحمها الله ـ .

* ولأمّ الدرداء أخبار كثيرة مع عبد الملك بن مروان ، وفي بعض هذه الأخبار ما يدلُّ على فراستها وذكائها ؛ فقد قالت لعبد الملك يوماً : ما زلت أتخيّلُ فيك هذا الأمر مذ رأيتك .

قال : وكيف ذاك ؟ ! .

قالت : ما رأيتُ أحسن منك محدثاً ، ولا أعلم منك مستمعاً .

وعبد الملك بن مروان خليفة الدّنيا في وقته ، كان يستفيد من حديثها ، وإذا ما بدرت منه هفوة من الهفوات كانت أمُّ الدَّرداء النّاسكة

(١) البداية والنهاية (٩/٥٠) .

العالمة التَّقية تصحح له ذلك بالحجة والحكمة والموعظة الحسنة .

* ورد عن زيد بنِ أسلمَ أنَّ عبد الملك بن مروان بعث إلى أمّ الدَّرداء فكانت عنده ، فلما كان ذات ليلة قام عبد الملك من الليل ، فدعا خادمه ، فكأنَّه أبطأ عنه ، فلعنه ، فلما أُصبح قالت له أمُّ الدَّرداء : قد سمعتُك الليلة لعنت خادمك ! .

قال : إنَّه أبطأ عني .

قالت : سمعتُ أبا الدَّرداء يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة »[1] .

* وكانت لأمِّ الدَّرداء ـ بعد وفاة زوجها ـ عادة منتظمة في حياتها ، إذ كانت تقيم ستة أشهر في بيت المقدس تُعلم وتتعبد في المسجد الأقصى الذي بارك الله عزَّ وجلَّ فيه وحوله ، وتقيم ستة أشهر أخرى في دمشقَ الشَّامِ موطنها الأصلي .

* وهي خلال إقامتها في بيت المقدس تتمتع باحترام عبد الملك لها ، فلقد رُؤي عبد الملك جالساً في صخرة بيت المقدس ، وأمّ الدَّرداء معه جالسة ، حتى إذا نودي للمغرب قام عبد الملك ، وقامت أمُّ الدرداء تتوكأ على عبد الملك حتى يدخل بها المسجد ، فإذا دخلت جلست مع النِّساء ، ومضى عبد الملك إلى المقام فصلّى بالنَّاس[2] .

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٣٥) ، والحديث في جامع الأصول لابن الأثير (٧٥٧/١٠) .

(٢) تاريخ دمشق (ص ٤٣٥) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٩/٤) ، والأعلام (٧٧/٨) .

* ومن الأخبار التي تتصل بهذا ما روته بنفسها أنَّ رجلاً أتاها فقال : إنَّ رجلاً قد نال منك عند عبد الملك .

فقالت : إن نُؤْبَن ـ نُتهم ونُعاب ـ بما ليس فينا ، فطالما زُكّينا بما ليس فينا(١) .

* * *

وَدَاعاً أمّ الدَّرْدَاء :

* في سنةٍ إحدى وثمانين من الهجرة الشَّريفة ، أدَّت أمّ الدَّرداء فريضة الحجِّ ، ولما فرغت من حجّها عادت إلى دمشق .

* وفي سنة (٨٢ هـ)(٢) وافى أم الدرداء الأجل المحتوم ، ولقيتْ ربَّها بموطنها في الشَّام .

* وفي مقبرة باب الصَّغير بدمشق يثوي جثمان أمّ الدَّرداء إلى جانب زوجها أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ ، إذ أنَّ قبره معروف بباب الصَّغير .

قال النَّوويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ : وقَبْرُ أبي الدَّرداء وقبر زوجته أمّ الدَّرداء الصُّغرى بباب الصَّغير من دمشق مشهوران(٣) .

* ولعله من المفيد أنْ نذكر هنا مَنْ دُفن بباب الصَّغير بدمشق من

---

(١) تهذيب التهذيب (٤٦٦/١٢) .

(٢) البداية والنهاية (٥٠/٩) .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢٢٨/٢) .

النِّساء الصَّحابيات ؛ فقد قال الحافظ ابن طولون ـ وهو محمَّد بن علي الدمشقي الصَّالحيّ المؤرخ العالم الفقيه ـ : وقِبْلِيُّ باب الصَّغير قبر بلال بن حمامة ـ رضي الله عنه ـ ، وثلاث من أزواج النَّبي ﷺ وقبر فَضْة جارية السَّيدة فاطمة الزَّهراء ، وقبر أمّ الدّرداء ، هؤلاء كلهن في تربة واحدة .

* رحم الله أمّ الدّرداء ، وألحقها بالصَّالحين .

* * *